علاقة اللغة والفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث

ثاني بابيو يانا

محاضر بشعبة اللغة العربية، كلية الآداب والتربية

جامعة ولاية بوتشي، نيجيريا

Sani Babayo Yana
Arabic Department,
Faculty of Arts And Education,
Bauchi State University, Gadau, Nigeria
Phone: 0996682686 (Sudan)
+2348032661331 (Nigeria)
Email: ibnkakka@yahoo.com

رقم الهاتف بالسودان: 0996682686

نيجيريا:002348032661331

بريد إلكتروني:ibnkakka@yahoo.com

Abstract

In the name of Allah The most gracious, the most merciful, no doubt, history is a beauty of human life, which is built upon human language. Researchers in Arabic Language generally devout their attention mostly on the aspects of contemporary language studies, ignoring the classical procedures which form the base frame. Expert in Arabic Linguistics paid most of their attention to what is obtained today. This research is an appraisal on the basis, which from the bedrock of effective Arabic contemporary studies. By so doing, it will promote effective Arabic Linguistic studies to a greater height. The researcher finally recommends that unless these procedures are accurately adhered to, the problem of misunderstanding Arabic Linguistic studies will continue unabated.

Key Words: ***Language, thought, base frame, contemporary***

المستخلص

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على النبي الكريم. الاحظت من خلال اطلاعي علاقة اللغة والفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث" يتناوله الباحثون وفقا للرؤية التي يراها العلماء المحدثون، غير أننا لو رجعنا إلى كتب التراث الإسلامي نرى هذه الرؤية متناثرة فيها. وعليه رأيت أن أسهم بهذه المقالة الاستنطاقية لبعض من كتب علمائنا ببلورة الفكرة فيها، لعلي أصل بذلك إلى حقيقة الرؤية القيمية لتراثنا لو درس بعقلية عصرية. وبذا يتكامل المفيد من التراث والحداثة، أما لو أعرضنا عن تراثنا وانطلقنا من الحديث دون تلقيحه بالتراث فإن الحلقة ستكون ناقصة مهما ادعينا التطور فلا جديد بغياب القديم.

كلمات مفتاحية: اللغة، الفكر، التراث الإسلامي، الحداثة

المقدمة

أولا: مفهوم اللغة: اهتّم اللّغويون العرب الأقدمون اهتماما كبيرا باللّغة، وقّدموا ملاحظات متعّددة ذات قيمة علمية حول قضاياها، وآراؤهم هذه تعتبر متطورة بالّنظر إلى زمانهم إذا قورنت ببعض المفاهيم الألسنّية الحديثة، ومن نظرتهم الواعية لقضايا اللغة قضّية مفهومها وعلاقتها بالفكر. فابن جني: يحّددها بأنها "أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم. هذا التعريف ضمن عدة حقائق تعتبر سابقة في ميدان الدرس اللغوي فهو يقرب: أ- أّن للغة أصوات، وهذه حقيقة لغوّية قال بها العلماء المحدثون، حيث يرون أّن دراسة لغة ما تعتمد على اللغة المنطوقة في غير الّدراسة التّاريخية الّتي تعتمد على المكتوبة في أغلب الأحيان، وهم بذلك يقّرون أن اللّغة المكتوبة ما هي إلاّ تمثيل للمنطوق، ب –أّن اللغة وسيلة للتّعبير عن مضمون الفكر، ويقّر بوجود" هياكل فكّرية تهّيئ لممتلك اللّغة تحليل ما يحيط به، كما أن طبيعة تجاربه العلمّية تضيف إلى الّرصيد المختزن كثيرا من الّرموز الذّهنّية تنضاف إلى الهياكل السّابقة ". فاللّغة ليست مجّرد أصوات يصدرها الإنسان خلوًّا عن أيّ معنى ، وينطق بها أّنى شاء وكيف شاء وإّنما هي للتّعبير عن معطيات فكرّية مقصودة من هذه الّرموز الصوتّية، ج –أّما قوله "كّل قوم عن أغراضهم " ف" يشير إلى غائية اللّغة من حيث هي للتّفاهم وتبادل الأفكار ، فهو بهذا سابق لعلماء علم اللغة الاجتماعّي المحدثين في اعتبار اللّغة ظاهرة اجتماعّية. كما أّنه يقّر بتنوع اللّغات واختلافها بتنّوع الشّعوب والأمم. وتقول المستشرقة الفرنسية "أوديت بيتي "إذا ما قارننا هذا الحد [تعريف ابن جني] بما قاله أول عالم غربي مشهور في علم اللّغة في القرن العشرين وهو "دو سو سير ب Dessaussure "في كتابه دروس في علم اللغة العام وهو قوله "إن اللغة نظام من السمات المعينة تناسب معان معينة " فسنعتبره [ابن جني] السابق إلى إدراك اللغة بهذه الكيفية". فاللّغة دليل على اجتماعّية الإنسان، والّنطق هو الذي مِيزه عن سائر الخلق، ولذلك قال الفلاسفة قديما بأّنه " حيوان ناطق"وترتّب على كونه ناطقا أن يكون مفكّرا، وبفقدانهما يخرج الإنسان من حد الإنسانية إلى نطاق البهيمة. في الحقيقة هذا التعريف جامع مانع ، وتغني عن سواه قديما وحديثا؛ ولذلك سأكتفي به عن كثير من التعريفات التي لا تخرج عنه تحاشيا للتطويل والاستطراد.

ثانيا مفهوم التفكير أو الفكر جاء في كتاب التوقيف على مهمات التعاريف :"التفكر طلب الفكر، وهو يد لنفس التي تنال بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات " وهو " تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب"، وأنه "جريان القوة المطرقة من العلم إلى المعلوم بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان".

وفي اللسان: "الفكر إعمال الخاطر في الشيء. ويعرّف الجاحظ التفكير بأنه " القدرة على الاستقبال والتخزين والتحليل والتركيب ثم الاستنباط والتصور والابتكار، وينتج عن هذا كله مختلف التعبير الكلامي ". أي هو كما تراه "جودث جرين" القدرة على استحضار صور خيالية للعالم الواقعي الذي نعيش فيه والعالم الخيالي ثم استعراضها في عقلنا الواعي". ويعرفه علماء علم النفس بأنه تدفق غير منتظم من الأفكار والصور والذكريات والانطباعات العالقة التي تدور حول مشكلة من أجل حلها في الذهن. ونلاحظ من هذه التعريفات تباينها وفق اتجاهات أصحابها.اتجاه فلسفي يربطه بالعلم وسبل اكتسابه، فهو عمل عقلي يشمل التصور والتّذكر، والتّخيل ، والحكم ، والتأمل. اتجاه يربطه باللغة، وهو كما يراه أفلاطون حوار داخلي بكلمات تشير إلى صور. اتجاه سلوكي نفسي يربطه بحل المشاكل في علم النفس. أهم ما نلاحظ منها إ شارتها مباشرة أو ضمنا إلى علاقته باللغة. وإذا قلنا " إن الفكرة معنى من المعاني ، فالمعاني هي الصور الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل ، فمن حيث إنّها تقصد باللّفظ سميت معنى، ومن حيث أنّها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما..."

المنهج

من هنا سيعرج االبحث فيما يأتي إلى تناول هذه العلاقة بالدراسة في محورين:

المحور الأول: علاقتهما في الفلسفة القديمة: كانت اللغة مجال اهتمام قديما، سواء في الكتب المقدسة أو الفكر الفلسفي، فالإشارات الموجودة في الكتب المقدسة إلى نشأة الخلق ، واقترانها بالكلمة لدليل على أهميتها ونشأتها مع ظهور الإنسان الأّول. قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(البقرة/31) يذهب العلماء في تفسير الآية إلى أن الله أوقفه على لغة هي أتم اللغات. وفي الديانة المسيحية تعني "الكلمة " الأقنوم الثاني من الأقانيم الثلاثة (الأب ، والابن، وروح القدس). ويرى أفلاطون "الكلمة " هي" العقل الأول، في حين يراها "ابن عربي" "أنها الحقيقة الإنسانية " و"حقيقة الحقائق". وتعني " كلمة منطق " بمعناها المشتق من الكلمة اليونانية (لوجوس Logos) اللغة أو الفكر أو العقل. وإذا تطرقنا إلى علاقة اللغة بالفكر في الفكر الفلسفي القديم فإننا نجدها عنصرا قارّا في دراساته ،فقد حاول فلاسفة اليونان أن يبيّنوا أن اللّغة بوصفها أداة للتعبير عن الحقائق يعتبر خطأ، وذلك أن اللغة تؤدي إلى جعل الأشياء ثابتة وعليه بنى هيراقليطس رفضه لهذه النظرة إلىاللغة، في حين هام السّوفسطائيون باللغة والمفاهيم فبنوا فلسفتهم على تحديد المفاهيم، ولذلك أرجعوا المعنى إلىاللفظ ليستساغ لهم أن يجعلوا الجدل وسيلة للانتصار على الخصم. أما أفلاطون فوجّه نقدا لهذه الرّؤية التي ذهب إليها

السّوفسطائيون، وحمل عليهم هذه العبادة التي أقاموها للألفاظ اللغوية ، وكان يقول: "إن الألفاظ يمكن أن تؤدي إلى إثبات حقيقة المذاهب المتعارضة المتعاكسة ، فمثلا قول هيراقليطس ... إن الوجود موجود وأن ليس شيء اسمه العدم، مثل هذه الأشياء يمكن أن يستخلص منها مذهبان متعارضان ومعنى هذا أن الألفاظ لا تؤّدي إلى بيان حقائق الأشياء مادامت تؤدي إلى أقوال متناقضة " " فاللغة لا تؤدي إلى التعبير الصّحيح عن حقائق الأشياء ". ف"هيراقليطس، وأفلاطون لا يريان أي تلازم بين اللغة والفكر وأن اللغة لا تمثل الفكر وهي عاجزة عن التعبير عن مضمونه.

جاء بعد أفلاطون تلميذه "أرسطو" فذهب إلى أن " الكلام رمز لما في العقل والكتابة رمز للكلام ، وكما أن حروف الكتابة ليست واحدة ...لكل البشر، فكذلك الألفاظ .غير أن المعقولات - التي تعد هذه الألفاظ علامات مباشرة لها – واحدة للجميع ، وكذلك الأشياء القائمة في العالم الخارجي التي تعد هذه المعقولات صورا لها متماثلة للجميع". وملخص رأي أرسطو في الموضوع هو: أن الوجود القبلي للفكر يوازيه وجود قبلي للواقع الموضوعي بأشيائه القائمة في العالم الخارجي فلا يختلف اثنان في إدراكه. أن دور اللغة هو نقل المحتوى الذهني المتماثل لدى جميع البشر؛ فما ينشأ عن العملية الإدراكية لدى البشر ما هي إلاّ الصور الذهنية التي تتماثل لدى كل قائم بهذه العملّية. فللفكر وجود سابق على اللغة ، واللغة والفكر من خصوصيات الإنسان ، ويتّسم الفكر بطابع كلّي لا اختلاف بين البشر فيه. وعلى أية حال فإن تناول الفلسفة لهذه القضية تقرير لأهميتها فهي قضية لا تختلف عن القضايا الفلسفة التي بحثت في حقيقة الوجود.

وجهة نظر العرب الأقدمين في هذه العلاقة: كتب لآراء أرسطو السابقة الاستمرارية في البحوث اللغوية، غير أن التراث العربي قدم في هذا المجال علما لغويا يستحق الوقفة عليه. يمكن القول إن المتقدمين من علماء العربية قلّ من تكلم عن اللفظ والمعنى إلا وتناول العلاقة بين اللغة والفكر في ثنايا كلامه يقول" استيفان أولمان" عن العلاقة بين اللّغة والفكر "إن نواة دراسة علم اللغة هي العلاقة ذات القطبين بين وجهيهما المتداخلين" وهذا يقابل اللفظ ومدلوله عند العرب الأقدمين. فالاهتمام باللفظ والمعنى قديم عندهم لأنهما قطبا الحقيقة الفكرية ، وكانت دراساتهم موجهة نحو الربط بين الألفاظ والمعاني وهو تقرير بربط الأفكار باللغة.

يري عبد القاهر الجرجاني أن التفكير كلام نفسي والكلام تفكير جهري. ثّم أسس وجهة نظره من علاقة المعنى بالتراكيب اللغوية ، وترتيب الكلام حسب ترتيب معانيها في الفكر، مؤسسا بذلك موقفه من اللّفظيين الذين يرون أسبقية الألفاظ على المعاني يقول عبد القاهر " لو كان القصد بالنظم إلى اللّفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان

ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسب النظم أو غيره، فإن اللفظ في إمكان أي شخص صحيح اللّسان أن ينطق به ، ولكن لما كانت الغاية من الكلام هو توصيل الفكر ، فلا بدّ أن يكون في أصل تكوينه من فكر منظم ليضمن إفهام السامع القصد من الكلام ، ولذلك تباين الناس في حسن الإفهام حسب تباينهم في حسن النظم. يقول"واعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضّرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر في ما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة، من غير أن تغير من لفظه شيئا أو تحوّل كلمة من مكانها إلى آخر، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر، وعلى هذا فإن اضطراب اللّغة يؤدي إلى اضطراب الفكر والعكس صحيح كذلك. وينزل عبد القاهر الجرجاني الكلام منزلة القادح لخروج كوامن نفس الإنسان وطاقاته إلى حيّز الفعل، حتّى إنّ قوى العقل والخاطر والفكر والإدراك والقريحة والذّهن هي أبدا حبيسة ما لم ينفث فيها الكلام معالم الوجود"، إذ إن بين الكلام والفكر رابطة عضويّة وتلازم مطّرد؛ فالمعاني ليست مجرّد شيء تعبّر عنه اللّغة وإنّما هي شئ تنتجه فليس للشّيء في الوجود الظاهري وجود حتى تسميه اللغة وتشير إليه، يقول في ذلك "إذ لولاه [الكلام] لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه ، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها واستوت القضية في موجودها وفانيهاولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعاني مسجونة في مواضعها. ومحال أن يكون اللفظ قد نصب دليلا على شيء ،ثم لا يحصل منه العلم بذلك الشيء ، إذ لا معنى لكون الشيء دليلا إلا إفادته إياك العلم بما هو دليل عليه"، ويرى عبد القاهر الجرجاني أن المعاني تسبق الألفاظ في الفكر ، ويرتكز نقضه" للقول بأسبقية اللفظ على مقولة منطقية": فيرى أن الواجب أن ينظر إلى حال المعاني مع الألفاظ ،فمن المحال" أن يكون الترتيب فيها [المعاني] تبعا لترتب الألفاظ مكتسبا عنه لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمعاني، وأن تقع في نفس الإنسان أولا ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها ، بالعكس مما يعلمه كل عاقل ... هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ فكيف يتصور أن تسبق [الألفاظ] المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس إذا ثبت أن الخبر وسائر معني الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره. فاعلم أن الفائدة في العلم بها واقعة من المنشئ لها ، وصادرة عن المقاصد إليها" فالذي يحدث عندما تنبثق فكرة في خاطر الإنسان فإنها تبقى هائمة غير متجسدة في الوجود المادي، ثم يحدث ارتباط عند إرادة نقلها إلى الوجود المادي بين العقل والأعصاب والأعضاء الكلامية ،فتبدأ عملية ترجمة الفكرة الصامتة إلى الكلام الصائت فالكلام هو في حقيقته صوت النفس في شكله الظاهر، والعقل لا يفرز مادة فكرية إلا وفي اللغة استعداد

لاحتضانها وتبنيها، وعليه كانت علاقة الإنسان باللغة عبر التفكير حسب رؤية الجرجاني راجعة إلى أن الكلام راجع إلى العقل والفكر من حيث هو الصانع لقوالبها وتصريف شؤونها ونسج نماذجها، وبهذا النسج بمقتضى المعنى، كانت الألفاظ والمعاني سند بعض لبعض، فتعطي الأولى للثانية دفعة الوجود والظهور ولذلك يستحيل الفصل بين اللغة والفكر لهذه العلاقة بينهما". فمفردات الرسالة تبدأ داخل عقل المرسل ويتم ترتيبها ونظمها أيضا داخل العقل قبل أن يعبر عنها بالعلامات الصوتية وهي رؤية لا تختلف عن رؤية " سوسير" القائلة بالدائرة المغلقة في اللغة، حيث ترى أن " المرسل يبدأ بصورة ذهنية تم الاتفاق المسبق على دلالتها بصورة عفوية وثبتت هذه الدلالة عن طريق العرف، والاستخدام يحولها إلى صورة صوتية ...من طريق التلفظ الصائت وتصل الصورة السمعية إلى أذن المتلقي فيحولها إلى الصورة الذهنية المتفق عليها عفويا .وحين تجيء دوره للكلام يحوّل الصورة الذهنية إلى صورة سمعية من طريق التلفظ الصائت ويتلقاها المستمع بنفس الطريقة السابقة " فلا يتصور " أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ،وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق". ويقول الجرجاني :"فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواضعه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نفسها فباطل من الظن". " واعلم أنك إذا فتشت أصحاب اللفظ عما في نفوسهم وجدتهم قد توهموا في الخبر أنه صفة للفظ، وأن المعنى في كونه إثباتا، أنه لفظ يدل على وجود المعنى من الشيء أوفيه ،وفي كونه نفيا أنه لفظ يدل على عدمه وانتفائه عن الشيء وهو شيء قد لزمهم وسرى في عروقهم وامتزج بطباعهم. والدليل على بطلان ما اعتقدوه أنه محال أن يكون اللفظ قد نصب دليلا على شيء ثم لا يحصل منه العلم بذلك الشيء ،إذ لا معنى لكون الشيء دليلا إلا إفادته إياك العلم بما هو دليل عليه ،وإذا كان هذا كذلك علم من أنه ليس الأمر على ما قالوه من أن المعنى في وصفنا اللفظ بأنه خبر ،أنه قد وضع لأن يدل على وجود المعنى أو عدمه.

في هذين النصين يقدم عبد العزيز حمودة قراءة فحواها أن عبدالقاهر يشير من خلالهما إلى اتّجاهين: أولاً أسبقية المعاني على اللغة الذي مثله ويحدد موقفه من خلال مهاجمة اللفظيين في موقفهم حين تبنوا الاتجاه الثاني. والخطأ في رأي من قال بأسبقية اللفظ على المعنى أو اللغة على

الفكر في نظر الجرجاني: أنه اعتمد سياق التلقي للرسالة الصوتية أولا ثم تحقق المعنى ثانية، في حين أن عبد القاهر يرى أن نعتد بالمرسل لأن النظر إلى العلاقة بين اللغة والفكر من منظور السامع ظن فاسد، فإنك قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع، فإذا رأى المعاني لا تترتب في نفسه إلا بترتب الألفاظ في سمعه، ظن عند ذلك أن المعاني تبع للألفاظ، وأن الترتيب فيها مكتسب من ا لألفاظ ومن ترتبها في نطق المتكلم، وهذا ظن فاسد ممن يظّنه ،فإنّ الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لامع السامع. فالموقف الذي يرفضه عبد القاهر هنا [أسبقية اللغة على الفكر] موقف محدد ومفصل بشكل يؤكد أنه كان أحد محاور الجدل في عصر عبد القاهر أو قبله بقليل هذا التحديد والتفصيل اللذان يوردهما في نصه السابق يدل بما لا يقبل الشك على أن العقل العربي قد توقف هو الآخر عند جدلية اللغة /الوجود أو اللغة / العالم الخارجي. فاللفظيون الذين يتحدث عنهم عبد القاهر يرون أن المعنى في كونه إثباتا أنه لفظ يدل على وجود المعنى من الشيء أو فيه"في لغة مبسطة :حيث إن اللفظيين قالوا بوجود المعاني في الألفاظ وليست خارجها ، فإن هذه الألفاظ تصبح الدليل على وجود معنى الشيء في حالة الإثبات، وانتفاء وجوده في حالة النفي ، ويعود عبد القاهر إلى المعنى نفسه الذي يرفضه عند اللفظيين ليكرر موقفهم "من أن المعنى في وصفنا اللفظ بأنه خبر أنه قد وضع لأن يدل على وجود المعنى أو عدمه " هل هناك شك أن موقف اللفظيين الذين يرفضهم عبد القاهر يقول بما قال به المحدثون من فلاسفة ولغويين من أن العالم الخارجي لا يوجد إلا في اللغة ، وأنه لا وجود لهذا العالم الخارجي خارجاللغة؟ يبقى أن يورد البحث جانبا من رؤية الجرجاني في التّركيب اللّغوي وعلاقة ذلك بحدوث التّ رابط بين اللّغة والفكر من خلال المعاني المكتسبة من التّراكيب ا لنّحويّة. وهي رؤية قفز بها الجرجاني التّ اريخ لمعايشة أفكار المحْدثين من أمثال تشومسكي في قواعده التوليدية ، فقول الجرجاني : إن النّظم للمعاني الموجودة في النفس يمكن اعتباره ما يسميه تشومسكي بالبنية العميقة والبنية السّطحية في اللغة يقول الجرجاني "لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادا ومجردة من معاني النّحو [أو] منطوقا بها على وجه لا يتأتّى معه تقدير معاني النحو وتوخّيها فيها" فهو يرى أن عمليات ا لفكر المجرد تتّم في المستوى العميق، ثّم تتجسّد عن طريق البنى السّطحية لتتحوّل اللّغة بذلك إلى نظام قائم بعقول أصحابها ومن هنا "كانت النّتيجة اللّغوية من ثوابت الفكر .فهي تنظيم شكلي يتألف من أجزاء يقوم كل منها بوظيفة حيوية تسهم في بقائه وحفظه ، فكانت العلاقة بين اللغة والفكر علاقة صميمة، فالفكر والكلمة جسم واحد، والبنى السطحية نتيجة طبيعة بنًىكانت في الأعماق دفعتها اللغة إلى السطح. وهذا ما ذهب إليه الجرجاني من" أن النسق اللغوي [الجمل

المؤلفة]يقوم بتوصيل خبر إلى مستقبل له أو مخبر به. إذ إن وجود الألفاظ في حد ذاته دليل على وجود مسبق للأشياء ،تم الاتفاق الاعتباطي على أن تكون الألفاظ دلالات عليها". ويمثل عبد القاهر ذلك بجملة "ضرب زيد" " فإذا قال : ضرب زيد ،كان مقصوده أن يعلم السامع وجود الضرب من زيد، وليس الإثبات إلا إعلامه السامع وجود المعنى" أي في ذهن المخبر فالنحو كما يراه الجرجاني "ليس مجرد قواعد لتعليم النّطق السليم أو الكتابة الصحيحة بل هو أكثر من ذلك قوانين للفكر داخل هذه اللغة "فالنحو منطق عربي". إن ما يقرره الجرجاني من أمر الاستفهام في الجملة العربية، وأخذه على النحاة في مسألة التقديم والتأخير في عدم اعتبارهم إياها بأنها جاءت لمعنى ،واكتفاؤهم بالقول بأنها جاءت للعناية أو التوسعة للمتكلم لدليل على إلمامه بالبنية العميقة للجملة وهي ما يسميه بالمعاني الموجودة في النفس، والبنية السطحية التي يسميها بالبناء. وحسب رأيه يكون الكلام معبرا عن الأفكار بتضافر البيتين .ولنضرب مثالا لذلك من خلا ل القصر. إذا قلنا ما ضرب زيد إلا عمرا، في قصر الفاعل على المفعول وما ضرب عمرا إلا زيد، في قصر المفعول على الفاعل فإن التّقديم والتّ أخير أّديا إلى أن يرتبط الفكر - سواء أكان فكر المتكلم أم السامع – بمفهوم الجملة من حيث كان عمرو مقصورا عليه تارة وزيد تارة أخرى ، وكانا مقصورين أحيانا أخرى. وعناصر الجملة تبقى غير محدَّدة مادامت غير منجزة في محور التركيب من هنا كان بناء الجملة عاملا مهما لإعطائها جملة من الأفكار. يتضح مما سبق أن فكرة عبد القاهر لم تكن بعيدة عن فكرة التفسير العقلي الفلسفي للغة وقواعدها ،شأنه في ذلك شأن المدرسة التوليدية التحويلية التي انطلقت من تراكيب الجملة لربط العلاقة بين اللغة والفكر ليتبّنى ذلك من بعهدها. وخلاصة القول: إن نظرية الفكر واللغة عند الجرجاني تتلخص في إعطاء كل من اللغة والفكر دوره في بناء الجملة، فنظم العبارة قوة قادرة على ضم الألفاظ بعضها إلى بعض حسب وقوع المعاني في النفس، والمعاني هي الأصل في كل تعبير، وإن كان الأمر كذلك فالبنية السطحية نتيجة آلية للمعاني المركبة في النفس، ثم وضع الكلام وضعا يقتضيه علم النحو والجمل، أي أن ما يظهر على السطح أو يرتسم على الوجه أو ينطلق على اللسان أو يلتمع في العيون من علامات وإشارات ورموز وتعابير ما هي إلا انعكاس للتركيب العميق الذي يدور في خلد الإنسان ومخيلته ومشاعره، وهذا باختصار هو القول بأننا " نفكر بجمل " ومن خلالها. لقد وضع الجرجاني أساسا علميا بثورة اللفظ ، وكان من الممكن لمشروعه أن يشكل إنجازا إنسانيا واعدا ، لكن تحول البيان العربي بعده على أيدي النقاد من وسيلة تقنية للمساعدة على تفجير الإبداع وتحرير الحساسية، وإغناء أدوات الأداء العربي إلى علم تجريدي، محكم المنهاج، مستقبل بنفسه وممل، فلم يعد طوال عصور الاستعجام العربي وسيلة للوصول إلى

الفكر اللغوي المبدع بل إلى علم يؤدى فيه الامتحانات كما تؤدى في النحو في الصفوف الدراسية. إننا اليوم في حاجة إلى إعادة النظر في هذا البيان المبدع.

ذهب "جان لو سارف" إلى أن كلام إخوان الصفاء في شأن اللغة وعلاقتها بالفكر إنما هي ثمرة يونانية.غير أن هذا القول لا يسلّم به؛ فقد كان فكرهم تساؤلا عن قضايا عقدية محورها الظاهرة اللغوية ، انقدحت شرارتها في صلب حضارة العرب عرقا ولسانا، وأفرزت مادتها حضارة الإسلام، فكانت دائرة التلاقي والتقطع مركزها لسان العرب ،فإن كان إخوان الصفاء قد استفادوا من اليونان فإن فكرهم اعتملها وطبعها بطابع إسلامي. انطلق إخوان الصفاء في تحديد ماهية اللغة وعلاقاتها من تصور يرونها: إنسانية مؤيدة بالوحي في انقداح المعاني في الفكر فقالوا: " اعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه، أن النطق مشتق من نطق ينطق نطقا، والنطق فعل من أفعال النفس الإنسانية، وهذا الفعل أنواع: فكري ولفظي، فالنطق اللفظي هو أمر جسماني محسوس، والنطق الفكري أمر روحاني معقول وذلك أن النطق اللفظي إنما هو أصوات لها هجاء، وهي تظهر من اللسان... وتمر إلى المسامع من الآذان. أما النطق الفكري هو أمر روحاني معقول فهو تصور النفس معاني الأشياء ذاتها ورؤيتها لرسوم المحسوسات في جوهرها وتمييزها لها في فكرتها، وبهذا النطق يحد الإنسان فيقال له حيّ ناطق مائت. فالمنطق [الكلام] كما يحدده إخوان الصفاء" هو ما يصدر عن النفس الإنسانية من الكلام أو النطق الذي هو وليد التفكير السليم والفهم السوي، وذلك الفهم هو الذي يعصم العقل من الخطأ" وتصور إخوان الصفاء في علاقة اللغة والفكر هو التصور الذي قال به المحدثون، من كون اللغة لفظية وفكرية؛ لفظية تتكون من أصوات ، فجمل، وفكرية تقوم على تصور النفس معاني الأشياء في ذاتها،وهذا ما ذهب إليه" دو سو سير" من أن اللغة منظومة تتكون من عنصرين هما الأفكار والأصوات. يقول إخوان الصفاء "ولما كانت الألفاظ مؤلفة من الحروف المعجمية ، فإن هذه الحروف ثلاثة أنواع : أنواع فكرية لفظية ... فالفكرية هي صورة روحانية في أفكار النفوس مصورة في جواهرها قبل خراجها معانيها بالألفاظ ، والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء فمدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة" و"الحروف الفكرية هي الأصل" وبذلك فإن الأفكار سابقة للمعاني في الوجود الذهني، وهو ما ذهب إليه " فيجو تسكي 1859-1934م " من أن التفكير اللفظي ليس أكثر من مكون تابع للتفكير الإدراكي المحدد بالموضوع. لقد دل إخوان الصفاء على فهم مبكر لهذا الجانب الذي أغناه المحدثون. ولهم فضل في التأمل والتنبه له.

انطلق ابن حزم في البحث عن مسائل اللغة من منطلق ظاهريته في رؤية الكون ، فبدأ بالبحث عن نشأة اللغة وانتهى إلى القول بتوقيفية اللغة من الله؛ ذلك أن اللغة لو كانت" اصطلاحا لما جاز أن

يصطلح عليه إلا قوم كملت أذهانهم، وتدربت عقولهم، وتمت علومهم، وقفوا على الأشياء كلها الموجودة في العالم، وعرفوا حدودها واتفاقها، واختلافها، وطباعها، وبالضّرورة نعلم أن بين أول وجود الإنسان وبين بلوغه هذه الصفة سنين كثيرة يقتضي في ذلك تربية وحياطة وكفالة من غيره"، ف"بداية اللغة مطابقة مع بداية الوجود الإنساني إطلاقا أي أن أصل الكلام توقيف من الله" لأن الذي أوضع الخلق أوضع فيه الكلام وبمقتضى ذلك كان الكلام والفكر متلازمين، ومن هذا رأى ابن حزم أن احترام الألفاظ والوقوف عنده، احترام للإرادة الإلهية بينما البحث عن باطنها فيه تعدّ لحدود الشرع، ذلك أن للألفاظ معان ثابتة خلقت من قبل الله. وتمثل العلاقة بين اللغة والفكر عند ابن حزم أهمية كبرى، باعتبار أن لا تفكير إلا بلغة ولا لغة لا تضم حمولتها المضمونية الفكر، فلا لغة فارغة من الفكر والمعاني، يقول ابن حزم في تأكيد ذلك:" لا سبيل إلى معرفة الأشياء إلا بتوسط اللغة" وهنا يربط ابن حزم علم المنطق الذي يبحث في حقائق الأشياء باللغة، فالمنطق عنده ليس مجرد دراسة للتفكير المجرد بل دراسة للتفكير انطلاقا من اللغة فلا يمكن الحديث عن أداة تعصم الفكر(المنطق) من الخطأ بمعزل عن اللغة التي يتم بها هذا الفكر، فاللغة ليست أداة لتبليغ الفكر بل هي موضوع الفكر، ويؤكد ابن حزم علاقة اللغة الوظيفية بالفكر من خلال رفضه استخدام الألفاظ في غير معانيها، يقول " ننكر دعوى إخراج الألفاظ عن مفهومها بلا دليل" لأن الألفاظ وضعت لتعبر عن معاني مقصودة، وباعتبار القصدية في الكلام الإنساني نفى ابن حزم أن يكون كلام الحيوان مهما تدرب عليه وصح نطقا أن يكون كلاما؛ ذلك أنه لم ينبع من فكر كفكر الإنسان، ولأن المعاني تعتبر محورا أساسا للتفكير صنف الأصوات الدالة على المعاني إلى قسمين: منها ما يدل بالطبع ومنها ما يدل بالقصد، والأول ما لسائر الحيوان والجمادات. وقد ربط ابن حزم بقاء الإنسان بوجود اللغة باعتبارها واسطة يعبر بها الإنسان عن أفكاره وأحاسيسه وتتضح مشاعره للناس، فيسهل التواصل ،وتأخذ الحياة البشرية شكلها الاجتماعي و والتطوري، فالإنسان يعقل وجوده ووجود ما يحيط به بالفكر، ولأنه يؤلف بلغته بين الموجودات فإنها تكون على مثال هذه الأشياء، ويعيش صاحبها بينها وبين الفكر، يقول ابن حزم في ذلك: "لا سبيل إلى وجود أحد من الناس ووجوده دون كلام". وبهذه الرؤية يمكن اعتبار ابن حزم من رواد "النسبية اللغوية "، التي ترى أن اللغة تشكل الرؤية للعالم وأن التجربة الإنسانية هي جدل العلاقة بين لغة الإنسان وفكره. ولا يخرج الغزالي بفكره الفلسفي عن الآراء السابقة وهو أن الكلام" اسم مشترك قد يطلق على الألفاظ الدالة على ما في النفس وقد يطلق على مدلول العبارة وهي المعاني التي في النفس" فالكلام هو الفكر في شكله الظاهر، والفكر كلام خفي، وما دام الإنسان يمتلك معاني في ذهنه فهو محتاج إلى وضع علامات بإزاء هذه

المعاني ليتم ذلك نقلها إلى الآخرين لأنه " لا متكلم إلا وهو محتاج إلى نصب علامة لتعريف ما في ضميره". ويرى "الغزالي " أن الكلام يتم عن طرق ثلاثة: عن طريق عين تشاهد، وفكر يحلّل، وتجد الفكرة سبيلها للظهور عبر اللسان في ألفاظ ، فإدراك المتصور يتحقق في ثلاثة من حواس الإنسان، فلفظة " رجل" له وجود في الأعيان، وفي الأذهان، وفي اللسان أما وجوده في اللسان فلفظ "رجل" وأما ما في الأذهان من معنى الرجل فيسمى كليا من حيثإن العقل يأخذ من مشاهدة زيد [مثلا] حقيقة الإنسان وحقيقة الرجل. نخلص مما سبق إلى أن علماءنا الأقدمين، عرفوا كثيرا من خفايا اللغة وعلاقتها بالفكر؛ فقد اعتبروا اللغة والفكر شيئين مرتبطين يصعب الانفكاك بينهما فالنظام اللغوي هو الذي يصيِّر الفكر إلى الوجود الخارجي أماالفكر فمكتف بنفسه محتاج إلى اللغة لكي يخرجه من خفائه، كما أن اللغة محتاجة إلى الفكر كي يعبِّر عن مكنونات الأفكار بوضوح .ووفقا لما سبق نقول: إن اللسان العربي ببنياته، ليكشف عن نمط الوجود في حالتيه، الطبيعة والتاريخ، فتدل فيه المصادر والمفاهيم المنطوية عليها على وحدانية الانبثاق وانسجام المظاهر، وتدل الأفعال الحاصلة من المصادر على تحول الكائنات الدائم". وإننا لا يكفينا أن نعرف هذه العلاقة مع العربية اليوم بل لا بد من العمل على تحقيق الفكر المبدع من خلال هذه اللغة الدالة على الإبداع والفكر القويم المتمثل في القرآن الكريم. ثانياً وجهة نظر المحدثين في العلاقة بين اللغة والفكر: الكلام عن العلاقة بين اللغة والفكر عند المحدثين هو الكلام عن النسبية اللغوية القائلة: إن اللغة تؤدي إلى رؤى مختلفة للعالم، وعن الحتمية اللغوية التي تقول: "إن اللغة هي التي تحدد الفكر، وما في ذلك من وجهات نظر. أ/لنسبية اللغوية: سادت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين نظرة غربية عنصرية تنسب إلى ثقافات الشعوب أقلّ نموا وتقدما صفات البدائية، وواجهت هذه الرؤية نقدا شديدا على أنها تعتمد تحيّزًا عنصريا بافتراضها أن المجتمع الأوروبي هو الذي يمثّل قمة التقدم. ومن ثم بدأت رؤية جديدة في الظهور تنظر إلى الثقافات بوصفها كيانات مستقلة ذات مميزات مختلفة. وقد وصلت هذه النظرية ذروتها عند (وورف1897 – 1941م) فسميت ب"فرضية وورف ورؤية الفرضية يمكن إجمالها في العناصر الآتية: ترى الفرضية أن طبيعة اللغة هي العامل الرئيس الذي يحدد قنوات التطور، ذلك أن اللغة نسق ذهني ،ونسق الأفكار ما هي إلا نسق اللغة ، فاللغة هي التي تصنع الفك، واختلاف اللغات لا يعني مجرد اختلاف في النظام النحوي التركيبي فقط، وإّنما يعني اختلاف أنظمة ذهنية كذلك، وعليه فأفكار الناس تختلف باختلاف اللّغات. وأن اللغة تصنيف وترتيب لتّيار التجربة العلمية التي ينتجها نظام مجتمع معين ، والناس يؤدّون المواقف بطريقة تشبه الطريقة التي يتكلمون بها عن هذه المواقف. إن المفاهيم تختلف باختلاف اللغات فما

يفهمه العربي مثلا عن الزمن هو ما تقدم له العربية من مفردات وطرائق تركيبية ودلالات ثقافية حول المفهوم، في حين يختلف الفرنسي عنه في المفهوم، ذلك أن تجسيد فكرة الزمن ناتج عن تفاوت في التصورات التي تطرحها الأنماط الثقافية حول الكون والحياة ورؤيتهم لها، ما جعل العربي يعبر عن الحدث التي تم من خلال الفعل الماضي ، والذي لم يتم بالمضارع ، في حين أن الفرنسي يعبر عنه مع فروق نسبية، وقد واجهت هذه الرؤية جدلا، انقسم العلماء إلى مؤيِّدٍ ومعارض تجاهها. فذهب المؤيدون إلى القول: إن العلاقة الوظيفية المتبادلة بين عادات الكلام والتفكير المنّطة اجتماعيا، والعادات الاجتماعية الأخرى، لها أهميّتها لفهمٍ أكثر لعدد من جوانب السلوك الإنساني، فكل من المحتوى الدّلالي والمعرفي لجوانب معينة من اللغة يرتبطان بخصوصية اللغة والثقافة ارتباطا وثيقا أما الاتجاه المعارض: فيذهب إلى أنه إذا كان الإدراك الإنساني لعناصر القوانين التي تحكم عالم المدركات لاينفك عنه الإنسان، فإن كل إدراك إنساني لهذه العناصر في قوانين العالم الطبيعي لن يكون مختلفا باختلاف الثقافات؛ فالقول بتشكيل اللغة إدراكات ثقافّية متباينة يعتبر مناقضا لطبيعة الإدراك الذي هو سمة الإنسانية جمعاء، والإنسان يكوِّن مفاهيمه في الحياة من خلال عمليات محدّدة هيالتّمييز والتّفريق، والرّبط والتّحليل. وإدراك الظواهر من خلال المقولات اللّغوية التي تعبر عن هذا الإدراك ليس عملية مغلقة وكاملة بشكل نهائي وإنما هي عملية مفتوحة ومتجددة ومتغيرة ومن ثم فليس هناك ما يمكن أن نسميه بالإدراك الصحيح المطلق لأن أي إدراك إنما هو مسألة سياق"، هذا مجمل ما في هذه الفرضية. وقد كان لعلماء العربية هذا الرأي الذي يرى أن اللغة تساهم في تشكيل ثقافة الإنسان االخاصة، يتضح ذلك من خلال ما استنتجه محيي الّدين محسب من مناظرة وقعت بين "أبي سعيد السّيرافي 368هـ "النحوي، و"أبي بشر بن يونس 360هـ" المنطقي، انتهت إلى قول" السّيرافي " إنّ "المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفون بها من رسوها وصفاتها " فقد أدرك السيرافي أن المنطق اليوناني مرتبط باللغة اليونانية التي انتج بها فالمنطق الأرسطي ابن نظامه اللغوي، ولو نشأ في نظام لغويّ مختلف لكان من الممكن أن تتغيّرصورة قوانينه. وهذه الرؤية لم يكن منطلقها من زاويتها العنصرية ، وإنما إقرار واعتداد بقدسية لغتهم بأْن كرّمها الله بنزول القرآن بها ، يؤّيد هذا أخذهم على الذين يرون في اللغات الأفضلية المطلقة من زاويتها العنصرية يقول" ابن حزم الأندلسي": وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة وإنما هي بعمل أو اختصاص ، ولا عمل للغة ولاجاء نص في تفضيل لغة على أخرى..." فاختلاف اللغات سنة من سنن الله في الكون قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

لِلْعالِمينَ ﴾، (الروم:22) فهذه النظرة تستند إلى أصل قرآني، وتنسجم مع الرؤية الإسلامية للإنسان ولغته من حيث إنها ظاهرة إنسانيّة فلا لغة بدائية وأخرى متحضرة ، مادامت تلبي حاجة متكلميها قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ ،عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ،عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، (الرحمن: 1- 4).

الحتمية اللغوية

سبقت الإشارة إلى أن الفكرة وصلت ذروتها عند " وورف1897 – 1941م". والواقع أنه كان قبله إرهاصات لها. فقد ذهب (يوهان هيردر J.Herder 1744-1803م) إلى أن الروح الإنسانية تفكّر بالكلمات، وأننا باللغة نتعلم التفكيرفليس هناك وسيلة لتحليل الفكر إلاّ بتحليل اللغة، وقاده هذا إلى القول إن كل أمة تمتلك رصيدا خاصا من الأفكار التي تتحول إلى رموز هي لغتها القومية. وذهب (همبولت W.Humbolt 1762 –1835 م) إلى أن التفكير و الإدراك لا يمكن أن يتحددا وأن يتّسما بقابلية التّوصيل إلاّ من خلال اللغة ومن ثّمفاللغة والتفكير لا يقبلان الانفصال عن بعضهما. وذهب (إدوارد سابير Edward Sapir 1884- 1939م) إلى أن اللغة هي التي تتحكم في كل تفكيرنا حول المشكلات والعمليات الاجتماعّية. كانت هذه النظرات في القضية في الغرب. أما في روسيا فكان الرائد فيها (فيجوتسكي Vgotsky 1859 – 1934م) وكان يقول بأن اللغة والفكر مرتبطان " تماما في مرحلة الطفولة لكن تفكير الراشد يتحّرر من اللغة بطريقة ما نتيجة للنمو والارتقاء " ، فكلام الأطفال لا يتضّمن تفكيرا، وتندمج لغة الطفل وتفكيره في السن الثانية من عمره فيبد آن بعملية التأثير والتأثر، فالطفل يولد من غير لغة وعند نموه وخاصة في السابعة من عمره تبدأ اللغة بتنفيذ وظيفتين :داخلية وخارجية ، فالداخلية تقوم بمراقبة الأفكار وتوجيهها، والخارجية تقوم بتوصيل الفكر إلى الآخرين، وبماأن الطفل غير قادر على التمييز بين هاتين الوظيفتين نراه يتكلم بصوت مسمع عن أفعاله وخططه، في السابعة يبدأ باستخدام اللغة في مجالها الاجتماعي، ومن ثم تندمج اللغةالفكر في ذهن الإنسان بمثابة كلام يستعمله في الاتصال. ويرى "فيجوتسكي" أن اللغة وإن كانت غير الفكر من حيث الطبيعة والوظيفة، ومن ناحية نشوئها التاريخي إلا أنها ملتحمة به التحاما غير قابل للانفصال منذ نشأة الإنسان إلى نهاية حياته على البسيطة. فخلاصة رأي فيجوتسكي حول اللغة والتفكير منطلق من لغة الطفل، حيث يأخذ الطفل اللغة من محيطه، وهي غير مقترنة بتفكير منظم، ثم تأتي مرحلة الكلام التمركز حول الذات (الكلام مع النفس) ثم تتحول اللغة بعد ذلك بتمثيل الفكر ولتؤدي دورها في توصيله إلى الآخرين. ظهر "وورف" بعد هؤلاء لتصل الفرضية إلى ذروتها حتى سميت باسمه، كما سبق القول، فرأى أن تأثير اللغة على الفكر تأثير كامل ، وأن ليس هناك فكر دون لغة فلو وجدنا وسيلة للتحكّم في اللغة التي يتعلمها الإنسان فإن

بالإمكان التّحكم في أسلوب تفكيره، وأن اللغة هي المشكّلة لأفكارنا والمحدِّدة لرؤيتنا للعالم ؛ فتصنيف "الأسكيمو " للثلج يختلف عن تصنيف الإنجليزي له، فالمتكلم بلغة "الأسكيمو" يربعددا كبيرا من الثلوج ، وذلك لما تتيح له لغته من فرص التصنيف، على العكس من الإجليزي الذي لا يرى غير نوع واحد من الثلج فاللغة والفكر حسب رأيه شيء واحد لا انفصام بينهما، وهنا كان الاندفاع الحقيقي لدراسة العلاقة بين اللغة والفكر، فانقسم العلماء إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة: (1) الاتجاه السلوكي: ويمثله (ج. واطسون 1879م) وليونارد بلومفيلد1887- 1949م) ويرى أصحاب هذا الاتّجاه أن التفكير هو اللغة، وأنه مجرد كلام باق وراء الصوت، والفكر ماهو حديث دون المسموع. فالفكر لغة صامتة يتكلم بها الإنسان مع نفسه، ولذلك نرى الطفل يمرّ في مجرى نموّه اللغوي بثلاث مراحل أ/ مرحلة الكلام الجهوري دون اعتبار لعملية التفاهم. ب /مرحلة الهمس القصير يعبر فيه عن نفسه مع الآخرين. ج/ مرحلة التحدث مع الذات وهي مرحلة نشوء الفكر. من هذه النظرة درس السلوكيون اللغ ة بوصفها سلوكا إنسانيا ينطبق عليه الأسس السلوكيّة بصفة عامة ؛ فرأوا أن اللغة تتكون لدى الإنسان من خلال المثيرات والاستجابات الموجودة في محيطه لتصبح بذلك عادة عنده ، فيبدأ بالتقليد ثم الاستجابة لأي مثير مشابه لما يقلده. (2) الاتجاه العقلاني (المعرفي): ويرى أصحاب هذا لاتجاه أن التفكير واللغة ليسا متماثلين ولا يوجد تطابق مطلق بينهما ويمثل هذا لاتجاه" بياجيه" وتشومسكي والبنيويين. فقد خالف بياجيه ما ذهب إليه المذهب السلوكي، ورأى أن اللغة لا تساوي الفكر لأن التقدّم المعرفي سابق لنمو اللغة ، فالأطفال لا يمكن أن تكون لديهم أفكار عن الأشياء والموضوعات قبل أن يقدروا على تسميتها، ومن ثم فإنّ امتلاك اللغة لا يمنعه من التفكير، واللغة ليست سببا في التقدم العقلي، ولكنه أداة تستخدم في التفكير، ولذلك نرى الأطفال ينهمكون في الكلام مع أنفسهم لأنهم يجدون صعوبة في فهم الآخرين، ولأنهم يبدؤون بفهم حسي للعالم، ثم يحاولون أن يجدوا الأساليب اللغوية للتعبير عن هذا الفهم ، ومن هنا توصّل " بياجيه" إلى القول معتمدا على لغة الأطفال إن" اللغة تعكس في المقام الأول الفكر ولا تشكله"؛ وبذلك يستحيل على الأطفال فهم التعبير اللفظي قبل أن يتمكنوا من إتقان المفهوم الأساسي الذي يقوم عليه هذا التعبير. أما تشومسكي فقد ظل يقول: " إن مصطلحات المدرسة السلوكية مثل المثير والاستجابة والعادة ... كلها مصطلحات تحتاج إلى تحديد صارم عند التطبيق في حقل اللغة " ويرى أن الطفل يتناول اللغة بفهم حدسي للتصورات وتمثّل هذه المفاهيم إطارا للّغة والفكر. وهذا يعني أن اللغة مبنية على الفكر والتصور يضاف إلى ذلك الملكة اللغوية والقدرة على الكلام والمحيط الاجتماعي.كان اهتمام تشومسكي منصبا على الوظيفة الاتصالية للغة، وعليه أخذ على عاتقه مهّمة تفسير :كيف يستطيع

الّناس استعمال اللغة للتعبير عن المعاني وفهمها؟ فكان هدفه اكتشاف الملامح العامّة للقدرةالاتصالية وانتهى إلى القول بدور الملكة اللغوية والقدرة على الأداء وبهذا بنى رده على السلوكيين. أماالبنيويون فرأوا أن الحدث اللغوي لا يجري في مستوى الأصوات وحدها ولا في مستوى المعنى منعزلة ؛ بل يجري في مستوى اقترانهما وتشكّلهما وذلك جوهر اللغة. وبما أن اللغة نظام قائم بذاته ، فتدرس في ذاتها ولذاتها، فإن اللغة ليست صورة للفكر ومرآة تعكسه، وليست وظيفتها تمثيل الفكر، وإنما هي للتعبيرعن الأفكار والقيام بالعملية التواصلّية بين بني البشر، وهذا هو الدافع أن يعرف "دو سوسير"اللغة بأنها: " نظام من الدلائل يعّبر عمّا للإنسان من أفكار"، ففكرة دوسوسير تقوم على أن "اللغة نظام منالعلامات ولا تعد الأصوات إلا عندما تعبر عن الأفكار أو تنقلها، وإلا فهي مجّرد أصوات ولكي تعبر عن الأفكار أو تنقلها ينبغي لها أن تكون جزء من نظام من الأعراف يربط الأصوات والأفكار. وإننا حينما نصدر الصوت الذي هو لفظ "كلب " ليدل على فكرة "الكلب " ...نتفق اعتباطّيا على إقامة علاقة بين الصّوت والفكرة التي تشير إليها"، فدوسوسير يذهب إلى إنكار الوجود السابق للغة قبل وجود الأشياء ،وينكر وجود الفكر خارج اللغة والدور المميز للغة ليس خلق وسائل صوتية مادية للتعبير عن الأفكار ، ولكنه القيام بالّربط بين الفكر والصوت (3) اتجاه ينفي وجود أّية رابطة بين اللّغة والفكر :ويمثّل هذا الاتّجاه الفيلسوف الفرنسي (بيركسون 7 /1859 - 1941م).ولعلّ محمد السّعران خير من يمثّل هذا الاتّجاه من علمائنا المحدثين ، فقد رفض فكرة العلاقة بين اللّغة والفكر ويقول إنّ " الأصح والأدقّ أن تنظر إلى اللّغة على أّنها وظيفة اجتماعّية لا أن تنظر إليهامرآةً ينعكس عليها الفكر أو أداة عاكسة للفكر أو مستودعا للفكر المنعكس أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه". ومجمل ما في القضية أن هناك ثلاث نظريات حولها: أ/ نظرية العزل التام بين اللغة والفكر، ولا يوجد أي أثر لعلاقة الفكر باللغة ب/ نظرية انصهار الفكر باللغة فلا وجود للفكر مستقلا عن اللغة فالفكر لغة خفية ج/ نظرية استقلال الفكر عن اللغة استقلال نسبّيا مع تلاحمه العضوي بها والتأثير المتبادل بينهما، فاللغة وإن كانت غير الفكر من حيث الطّبيعة والوظيفة فإنها لا تستقلّ عنه استقلالا تاّما، فالفكر ُيعطي اللغة دور المسهّل والمعين للتّفكير وليس دور المسّيطر. ولعل أعدل نظرية يميل إليها الباحث هي التي تعطي اللغة والفكر دورا تبادليا، وإن الإنسان ليعجز عن البتّ برأيه في مثل هذه القضية انتظارا لرأي متفق عليه علميا. وما يمكن القول فيها أن هذه الاختلافات الدائرة حولها، لدلالة على السر الكامن وراء هذه اللغة .فحال اللغة مع الإنسان كحاله مع أسرار بعض مظاهر الخليقة؛ فنحن نتكلم اللغة دون التفكير في مكوناتها كما أننا نشرب الماء دون أن نفكّر في أسرارها، ولو أنّ الإنسان أراد أن لا يتكلم إلا بعد أن تنكشف له أسرار

كل جزء من أجزائه حالة كلامه لأمسك عن الكلام. فمشاكل اللغة تتداخل مع الفكر تداخلاً يصعب على المرء أن يحدّد مجال التأثير الواقع من كليهما على الآخر ؛حيث الصلة وثيقة يصعب الفصل بينهما، غير أن الحديث عن كليهما يخص العلاقة القائمة ببين الصوت والمنطق ومجسد الفكر. فالفكر يتأثر باللغة ويؤثر فيها آخذا بيدها، يتعاونان ما استطاعا وهكذا إلى أن تتم الرحلة. وعلى أية حال فإن العلاقة بين اللغة والفكر من حيث رؤيتها من خلال اللفظ والمعنى تأكدت" في منذ اللغويات الحديثة بداية القرن العشرين بعد أن انتهى علم اللغويات إلى مبدأين أصبحا اليوم من قبيل المسلمات:

المبدأ الأول: رفض شفافية اللغة، ذلك المفهوم التقليدي القائم على أساس وجود أشياء خارج اللغة تعبر عنها أصوات وألفاظ ، كأن اللغة مجرد وعاء شفاف يظهر الأشياء أو المواد التي بداخله، شفافية اللغة بهذا المعنى تعني وجود الشيء وممثله اللغوي منفصلين. أما اليوم، وبعد ما يقرب من أربعة قرون من تطور الفكر الفلسفي واللغوي الأوروبي فلم تعد اللغة تمثل الأشياء ذاتها بل مفاهيم الأشياء من ناحية .فصوت لفظ" شجرة لا يشير إلى شجرة مادية أو شجرة بعينها بل إلى مفهوم الشجرة ، ومن ناحية ثانية لقد طورت الدراسات اللغوية الحديثة ابتداء من نظرية "سوسير" مقولة مغايرة تماما للمفهوم التقليدي السابق عن تمثيل اللغة للأشياء مؤداها أن الوجود لا يدرك إلا في اللغة ومن ثم فهو ليس سابقا لوجود اللغة.

المبدأ الثاني: هو القائل باعتباطية العلاقة بين اللفظ والمعنى أو بين الدال والمدلول وهي علاقة يقّيمها العرف الاجتماعي أولا ثم يثبتها ثانيا، ومن ثم لا يصبح بإمكان مرسل واحد للعلامة اللغوية أو مستقبل واحد لها أن يتفقا على فصم العلاقة أوتغييرها بعيدا عن أعراف الجماعة".

إذا سلمنا بما قيل في هذا الموضوع فهما لا يجرنا إلى إنكار الآخر والتعصب المقيت فإنه يلزمنا أن نفتخر بلغاتنا وأهمها للمسلمين لغة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهي اللغة التي وصفها الله بأنها" مبين " وعربي " وكان القرآن الحامل لها " حكما عربيا " غير "معوج" واللغة التي وصفت بهذا القدر من الصفات جدير بأصحابها أن يبدعوا لكن السؤال الذي يبقى معلقا اليوم لماذا قعد المسلمون اليوم عن ركب الحضارة ؟ وكأنهم قالوا لربان قطارها أوقفوه لننزل .

الخاتمة

أعتقد أننا بحاجة إلى تعامل فكري فلسفي معها، ولتكن الخطوة الأولى نحو ذلك استخراج مبادئها ومعانيها القرآنية والإسلامية الدالة على أصالة الفكر فيها. ويبقى معرفتنا لقيمتها في حياتنا هي

الخطوة الثانية نحو الإبداع الفكري. وأن نعرف أن البلاغة العربية أعظم من كونها قضية لغوية بحتة ، إنها دلالة على كمال العقل والبصر معا، ومنها جاء الإعجاز اللغوي القرآني، فلولا دلالتها على هذا العقل المفعم فماذا نقول في نزول القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى على شاكلتها ، وتحديه الخلق بالإتيان بمثله؟!!.

المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا: الكتب

ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس ، سالم يفوت ، ط:1 ، 1986م ، المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء، المغرب.

ابن حزم وموقفه من الفلسفة والمنطق والأخلاق ، وديع واصف مصطفى ط: 1421هـ –2000م ، المجمع الثقافي ، الإمارات العربية المتحدة .

الإحكام في أصول الأحكام ، للحافظ أبي محمد علي بن ابن حزم الأندلسي الظاهري ،تح/ لجنة من العلماء ،ط:1 ،1404هـ –1984 م ،دار الحديث ،مصر.

الأسلوب ولأسلوبية، د عبد السلام المسدي ،ط:3 ، دار العربية للكتاب طرابلس الجماهيرية العظمى ، تونس .

أفلاطون، د. عبد الرحمن بدو يط:1979 م ، وكالة المطبوعات ، الكويت – دار القلم ، بيروت لبنان.

إنباه الرواة على أبناه النحاة ،لأبي الحسن علي بن يوسف القفطي ،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط: 1، 1416هـ-1986م القاهرة ،ج:2.

بالذكاء وقوة الكلمة ، عبد الله إبراهيم ، مقاربات للحوار مع الشعر والشعر العربي والشعر الغربي الحديث ، ط: 1، 1990، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء / المغرب .

تطور الجهود اللغوية في علم اللغة العام، وليد محمد مراد ،ط:1، 1404 هـ –1984م ، دار الرشيد ،دمشق ، مؤسسة الإيمان ، بيروت ،لبنان .

التطور اللغوي عند الأطفال د. أليسون اليوت . تر/ د. الصهبي علي بلحقوق ،د. بشير محمد الشاوس.ط: 1 ،1998 ،منشورات جامعة الفاتح ،طرابلس –الجماهيرية العظمى .

التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية ،تح /إحسان عباس :ط: 1959م.

الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،تح /عبد السلام محمد هارون (د ط) دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

الخصائص لابن جني ، تح محمد علي النجار ، ط:2،(د.ت)، دار الهدى للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان .

دروس في الألسنية العامة ،تر:صالح القرمادي وآخران ،ط:1985م، الدار العربية للكتاب.

رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ،تح: د. عارف تامر ،ط:1،منشورات عويدات،بيروت ،لبنان-باريس،1415هـ-1995م، المجلد الأول.

سلسلة علم المعرفة ،المرايا المقعرة ،نحو نظرية نقدية عربية ، د. عبد العزيز حمودة ، 272/ 1422هـ – 001 2م

العبقرية العربية في لسانها ، زكي الأرسوزي ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والمشر ، ط: 2 ، 1957م ، سوريا .

علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي ، د.محمود السعران (د ط ،ولا ت) دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت ، لبنان.

علم اللغة ،د .عبد الله عبد الحميد سويد و د. عبد الله علي مصطفى ،ط:1 ،1993 ف ،دار المدينة القديمة للكتاب، طرابلس –الجماهرية العظمى .

علم اللغة الاجتماعي ،د. هدسون ،تر/ محمود عبد الغني عياد ، مراجعة وتقديم ،د. عبد الأمير الأعسم ، ط: 1،1987م ،دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد .

اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة، د.أ حمد ظاظا ، ط:2 ،1990 ،دار القلم دمشق ،والدار الشامية بيروت .

اللغة بين العقل والمغامرة ،د. مصطفى مندور (د ط ولا ت) منشأة المعارف ،الأسكندرية – مطبعة أطلس القاهرة، مصر.

اللغة والفكر :د. نوري جعفر ، ط: 1971 ،مكتبة القومي ، الرباط ، ،المغرب .

المصلح النقدي ، د. عبد السلام المسدي ط:1994 م ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع ،تونس.

معجم الفلاسفة (الفلاسفة – المناطقة – المتكلمون –اللاهوتيين –المتصوفون) إعداد جورج طرابيشي ، ط : 1 ،1987م ،دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ،لبنان.

معجم المصطلحات العلمية والفنية، عربي – فرنسي، إنجليزي –لاتيني، تقديم :الشيخ عبد الله العلايلي ،إعداد وتصنيف : يوسف الخياط ، (د.ط ولا.ت) . دار الجيل بيروت – دار لسان العرب بيروت ،لبنان .

الملكة اللسانية في نظرية ابن خلدون ،د. محمد عيد ،(د.ط) عالم الكتب ، القاهرة ،مصر.

موسوعة أعلام الفلسفة ، العرب والأجانب ، قدم له الرئيس شارل حلو ، إعداد الأستاذ روني إيلي ألفا ، د. جورج نخل ، ط:1 ، 1412 هـ 1992 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

موسوعة أعلام الفلسفة ،إعداد محمد أحمد منصور ،ط:1 ، 2001 م ،دار أسامة للنشر والتوزيع ،عمان ،الأردن .

الموسوعة الإسلامية العامة، وزارة الأوقاف ،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،إشرف د. محمود حمدي زقزوق ، ط 1422هـ –2001م .

نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني ، وليد محمد مراد ،ط: 1، 1403هـ –1983 ، دار الفكر ،دمشق .

نظرية تشو مسكي اللغوية ، جونز ليونز ، تر/ د. حلمي خليل ،ط: 1 ، 1985م ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .

الوجيز في الفلسفة محمود يعقوبي ،ط: 1973م ، (د د) بيروت ،لبنان .

ثالثا: المجلات

مجلة الفكر العربي (كيف فهم علماء الإسلام الظاهرة اللغوية وكيف وظفوا هذا الفهم ؟ ،عز الدين الكبيسي) ع: 95 ، السنة :20 شتاء ،1999م ،بيروت.

مجلة اللسان العربي(مفهوم البنية العميقة بين تشومكي والدرس النحوي العربي، مرتضى جواد باقر)، ع : 34 ، 1990م.

مجلة المعرفة (اللغة والكلام بين إخوان الصفاء والدرس اللغوي الحديث ، مسعود بوبو) العددان : 316 –317 ، السنة : 28 ، 1989 .

مجلة المعرفة (سيمياء اللغة والتفكير د. منذر عياشي ع: 354 ، السنة : 32 ، 1993 ،سوريا .

مجلة المعرفة(سيكولوجيا التفكير وعلاقته باللغة ، وليد المصري)ع: 417 ،السنة :37 .